الساعات والغراب

قصة بقلم
غادة السمان

ريكاردو ...

موجع أن تمرض في فندق ... فالمرض ترف لا يقدر عليه الناس الوحيدون امثالي .

وهذا يومي الثالث وأنا محمومة ، مرمية في فراش ، وقد بدأت ارى النمل يخرج من وسادتي .. ليأكلني ..

ها هو صرصور يتحرك بين اكوام العقاقير الى جانب السرير ، والمروحة الضخمة تركض في السقف ، ومن الخارج تهب رائحة عدن الخاصة واصواتها وهمهمات المارة تحت الخص الخشبي .

ريكاردو ... يا ريكاردو ...

عبثا أستعيد ذكراك ...

عبثا ألملم ملامح وجهك في ذاكرتي وأعيد لصقها من جديد ...

عبثا أتذكر صوتك ، والسنوات الخمس التي عشناها معا ايام دراستنا الجامعية وبعدها .. وضحكاتنا المخمورة المجنونة في ليالي باريس وجنيف ..

والبيت الذي أسسناه معا ، واشترينا كل كرسي فيه معا .. وحتى علبة الملح ، وصندوق الخبز ، ومكعبات البراد التي ضحكنا طويلا لان لها شكل قلوب ...

عامان بعد الجامعة وكل لحظة نعيشها معا ... نخطط فيها ليوم زفافنا الذي كان من المفروض أن يتم اليوم ... واليوم ، اذ افكر بك ، أحس ان قلبي يستحيل ثلوجا كتلك المكعبات التي اشتريناها .

اليوم ... بيني وبينك قارات وبحار ومئات الاميال ...

طائرة ؟ أجل . الطائرة تستطيع ان تلتهم هذه المسافات في ساعات ... ولكن ، ما يقف بيني وبينك اليوم لا يمكن لشيء انيلغيه الا الموت ... لانه ليس الرجل الآخر هو الذي يحول بيني وبينك ... انه « انا » ... أنا الحقيقية التي أيقظها الرجل الآخر وكنت اظنها ماتت منذ زمن بعيد ...

ريكاردو ...

عبثا أستعيد ذكراك ...

عبثا ألملم ملامح وجهك في ذاكرتي ...

عبثا أصدق انني حقا كنت هناك ، وقضيت طفولتي ومراهقتي هناك بين باريس وجنيف ، وانني حقا عرفتك ... عبثا اشعر بالذنب تجاهك ... ذاكرتي ... أحسها مثل ابرة حاك صدئة تركض على أخاديد اسطوانة الماضي وتحاول عبثا ان تبعث في اهترائها صوت الايام الغابرة ... أتساءل : أحقا كنت هناك ، أم ان كل ما كان ، كان حلما ، وها انا قد عدت الى ارض الحقيقة وأرضي الحقيقية ؟..

ريكاردو ...

نسيت !.. لنقل ببساطة انني نسيت !..

ولكن الامر ليس بهذه البساطة .

لم أنس .

الامور اشد تعقيدا من ذلك .. واحس وانا الاحقها أنني سجينة شرنقة من الخيوط الجهنمية الحبك ، عبثا ألتقط بداية الخيط وأفك الشبكة ...

ريكاردو ...

حتى صورتك التي أستخرجها من تحت وسادتي ، أتأملها دون أن ينبض في أعماقي وتر . كأني أرى صورة رجل لا اعرفه . لا أكرهه ولا أحبه ولا دخل لي به ، ولا أدري من الذي دس بصورته تحت وسادتي !...

نعم ! عيناه واسعتان خضراوان . الشعر كستنائي ومضيء والابتسامة حارة على شفتين كأنما فرغتا للتو من قبلة مسعورة ... ولكن ما شأني بهذا كله ...

وحينما أحاول أن أستزيد من النظر الى صورتك ، تزوغ ملامحك وتتلاشى مثل رماد لفافة ... وأعجز عن مزيد من الرؤية ... ربما كانت هي الحمى التي تأكلني منذ ايام ثلاثة ...

وربما كانت هي المروحة التي تدور فوقي في السقف بأذرعها الحادة ... تدور تدور تدور ... أحس شفراتها الحادة تمزق افكاري مع كل دورة ... تشتتها . المروحة ... والحر ... الحر الذي لا يستطيع أوروبي مثلك ان يفهم كيف يخرج من شقوق الارض وأحجارها وصخورها ومن البحر ومن الناس كما يخرج الضباب في بلادك ...

(هل تذكر يوم حملتني الى معمل والدك للكبريت في ضواحي جنيف ليلة رأس السنة الماضية !... هل تذكر اللهيب الذي كان يفوح من موقد المعمل حيث امتلكتني على الارض الموسخة بالفحم والوقود ، المخططة مثل لوحة سيريالية للشهوة تحت جسدي ؟

هل تذكر ؟ كانت ليلة باردة . قلت لك : يدهشني كيف ينجب الناس اطفالا في اوروبا ، ففي هذا البرد ، كيف يفكر الناس بخلع ثيابهم ولو لدقائق ، وحتى في شهر العسل !.. قلت لي : ولكنك

عشت حياتك كلها في اوروبا ... صرت واحدة منا ...
ـ لا . لم أصر واحدة منكم ... فقط عشت معكم ...
ـ هل انت مصرية ام سورية ؟ لم أعد أذكر ...

ـ لا فرق . لكنني يمنية من صنعاء . والدي قريب للسلاطين أو مقرب منهم لا فرق . أمي ماتت ، وأبي بعث بي الى مدارس أوروبا الداخلية منذ كنت في العاشرة من عمري ... أغلى المدارس ... ولكنني لم أره قط بعدها حتى في الاجازات ... كان أصدقاؤه يأتون الى المدرسة . يدفعون اقساطي . يرتبون لاجازاتي ... صرت أتخيل ان والدي هو رقم لرصيد في أحد بنوك جنيف وانه مثل كل الارصدة سري الرقم ، وصعب الحصر .

ويوم خبرني أصدقاؤه بحزن مفتعل نبأ وفاته ، وكان في وجوههم التعبير نفسه الذي لوجه ساعي بريد مكلف بحمل برقية نعوة ، مهذب وعابس ولا مبال ، طلبت منهم ان يوفروا على أنفسهم عناء الحزن ... فأنا لم أحزن . كان ميتاً منذ زمن بعيد بالنسبة اليّ . كان مجرد حساب في البنك ، ولما عرفت أن حساب البنك يكفي لاعالتي في أتابع دراستي قلت لهم : اذن ابي الذي أعرفه لم يمت وهذا هو المهم ...

ـ فلننس هذه الذكريات المحزنة . قررت ان امنحك دفء بلادك هذه الليلة ... ما رأيك بأن نقضي ليله رأس السنة في فرن ؟..
ضحكت للفكرة . سألتك : هل هناك مطعم جديد في جنيف اسمه « الفرن » ؟..

ـ لا . بل في فرن حقيقي . لقد أعددت شرائح من الجبن وزجاجة نبيذ معتق ، وسنقضي سهرتنا في معمل ابي للكبريت ... بالضبط في غرفة الوقود . لقد رشوت العامل وسيسعده ان يخلي لنا المكان ...

قرب الفرن النفاذ الحرارة ، أغمضت عينيّ ، ومنحتك جسدي، وحلمت انني في ضاحية بصنعاء ، في الصحراء ، خلف الجبل الاخضر ، ممددة فوق الرمال الحارة ـ حيث كانوا يأخذوننا من زمان أطفالا للنزهة ـ الرمال حارة تحتي ، وأنا زنبقة الصحراء السوداء أسكب في الليل بعضاً من الوهج الذي سكبه فيّ أعكس اليه الرعشات التي ظالما شحنني بها ، انا ليلى التي استطاعت ان تكون لقيس ، وأنا عبلة في أحضان عنترة ، وأنا شهرزاد بعد أن كفت عن الكلام « المباح » وبدأت تعبر الجسر الى نشوات « اللامباح » ، وأنا كل نساء صنعاء وكل شهواتهن الخارجة من أزقة مدينتي الضيقة الى دفء الصحراء في ليالي اليمن) ...

اذكر جيداً كم استمتعت بي يا ريكاردو تلك الليلة ... وأنا كنت أظنني سعيدة بجسدك ... ولكنني الآن فقط أعي انني لم أكن أضاجعك وانما كنت أضاجع الصحراء الحارة تحتي ... وكنت أتحد بذكرى وطني ، بذكرى حرّه اللاهب ، رغم سنوات الفراق ، لم أكن قط أوروبية حقا ، ولم أشعر حقا بأي انتماء . لم أبال قط بأخبار صحف المدن التي عشت فيها ... لم أناقش قط في مشاكلهم ، ولم ألاحق قط قضاياهم . كنت مثل السنونو الذي ينتظر بغريزته ودونما تخطيط قدوم الربيع ، كي يعود الى سربه والى حقله ...

كان صقيع اللامبالاة الذي أحياه يرمي بي الى ضجر ينزف من حواسي كلها ... كنت أشعر انني مقيدة الى قطار رتيب يركض بي بلا نهاية في سهوب من الثلوج ، دونما أية محطة ، او تبديل في سرعته ، او حتى حادث اصطدام ... كنت احلم بالكوارث بشهية وأقرأ اخبار الحروب والزلازل بحسد ! (هل تذكر كم كنت أفرح حينما أصاب بالانفلونزا او (الجريب) أو أية حمى ؟) شيء ما في طقس بلادكم كان يرفضه جسدي ... وكان جسدي يحتج ، وكان احتجاجه باستمرار حمى ورشحا وبردا ...

وكنت أفرح بالحمى ...
كنت أفرح برعشة المرض ... تلك الرعشة ... تلك القشعريرة التي تهز أوصالي ... كانت الرعشة الوحيدة التي تمر بحياة تلك البائسة المقيدة الى قطار سهوب الثلوج اللامتناهية .. كنت تضحك مني ، يا ريكاردو ، حينما ازف اليك بفرح نبأ مرضي ...
لم تكن تفهم قط معنى روعة تلك الرعشة بالنسبة اليّ ...
كنت تظنني غريبة الاطوار ...
وتضحك مني ...
وكنت أحس بالخيبة ... فأنت كأسباني الاصل ، في دمك بعض من دمي ... او هكذا خيل اليّ في البداية ... ومن المفروض ان تفهم بعضاً من جنوني ...
وميشيل الفرنسي زميلنا في الجامعة كان يتقن التقبيل اكثر منك ، وتنميق الالفاظ والتحليلات النفسية الفرويدية ...
وريتشارد الانكليزي كان افضل منك في نف سجائر « الماريوانا » وصنع مخدر الـ (ال. اس. دي.) في مختبر الجامعة ...
وولفجانك الالماني كان حصانا في مرج المتعة لا مثيل لاصالته ووحشية ركضه ...

لماذا أنت ؟.. ربما كان ميشيل على حق يوم قال بعد أن رفضته: انك تفضلين ريكاردو لمجرد انه أسباني . انه اقدم العربي فيك هو الذي يشدك اليه . انك رغم كل قشورك ما تزالين عربية صحراوية ، وبالرغم منك تنجذبين لكل ما يذكرك بهذه الحقيقة ... وضحكت منه.. ضحكنا معا) ..

وكنت أظنني أحبك يا ريكاردو ...
حتى التقيت هنا بفضل ...
فضل .. لن تستطيع لفظ اسمه ، ففيه حرف الضاد .. فضل عربي الاسم . عربي اللسان . عربي الوجه . عربي النزق ... عربي العطاء ... عربي الثورة والكفاح والالم .

انني أهذي ... أعرف انني أهذي ... فضل عربي الجسد ، ففي قدميه ما تزال آثار سلاسل وقيود الجلاد الانكليزي ... انني أهذي .. ثلاثة ايام وأنا مرمية هكذا ... والحر يسوط عدن .. والحمى تلهبني .. والمروحة الكهربائية في السقف تدور وتدور .. وحتى حينما أغمض عينيّ تظل هي تدور ، وأظل عبر جفوني أرى ظلال شفراتها ...

ثلاثة أيام منذ أصبت بهذه الانفلونزا المدارية التي لم يألفها جسدي ... اليوم فقط بدأت أرى النمل يخرج من وسادتي وصرخت هلعا وادعت المرضة انني واهمة وانها الحمى . لا مناعة لديّ في بلادكم . ولا مناعة لديّ ضد امراض وطني .. انا شتلة عاشت في غير ارضها ، وعبثا تعيد انغراسها في ارضها الام ... طحلب هجين أنا ، ولا نجاة لي ...

فضل يقول انني سأنجو ... انه يضحك من مخاوفي ... يقول ان وطني بحاجة اليّ .. آه كم أنا هشة .. تلفظني ارضي كما تلفظ التربة البركانية اية نبتة هزيلة .
في اليوم الاول لمرضي لم اكن خائفة ... كعادتي فرحت بالحمى ...

فرحت بالقشعريرة الشرسة التي تستولي على جسدي كله ...

ولكن الحمى هذه المرة من نوع لم آلفه ... وها انا انلاشى شيئا فشيئا ... وحتى قشعريرة الحمى لم تعد تهزني .. صرت مثل ارض رخوة حل بها الزلزال فلم يجد ما يهزه ... لا قشعريرة ... مجرد نار تشتعل في خلايا جسدي كلها ... يخيل اليّ ان النار انهبت فيّ منذ وصلت الى هذه الارض ، كانني كنت مرصودة للمجيء وللاحتراق هنا ، كان العودة الى النبع كانت محتومة ... والاسماك ترجع دوما تموت في المغاور التي شهدت ولادتها ...

في جنيف قبل ان اجيء الى هنا ، كنت اظن الامر مجرد مغامرة صحفية اخرى ...

(قال رئيس تحرير المجلة التي كنت اعمل فيها منذ تخرجت من الجامعة : نريد محررا يطير الى اليمن الجنوبية ويحاول الوصول الى مسقط للكتابة عن حقيقة الثورة منها ... ما رأيكم ؟

تململ المحررون . كرر رئيس التحرير : ان اية ثورة في اي مكان من العالم امر يخص الانسانية كلها . ومن واجب الصحافة ان تحقق في حقيقة هذه الثورة ، ومدى اصالتها ، ومدلولها ...

قلت له : انا سأذهب ... انت تعرف انني يمنية الاصل .

ــ والدك من السلاطين وقد لا يسمح لك بالدخول .

ــ لا اظن ذلك ... على اية حال يمكننا ان نبرق لهم .

ــ حسنا . انت تعرفين العربية وهذه ميزة في رحلة كهذه . حسنا .. رتبي الامور مع سكرتيرتي .

وتدخل زميل كان يطمع في الرحلة : ولكنك ستتزوجين هذا الشهر !..

ــ يستطيع الكاهن ان ينتظر قليلا . هذه رحلة طالما تمنيت القيام بها . سأطير الى عدن ثم احاول الوصول الى مسقط ، ومن صنعاء اعود الى جنيف ...

وليلتها غادرت المكتب وسرت طويلا في شوارع جنيف المحيطة بمكاتب جريدتنا « نوفالا » ... امام احدى واجهات باعة الساعات توقفت طويلا . لاحظت ساعة يد غريبة ، ساعة مصابة بازدواج الشخصية ، فهي تتألف من ساعتين داخل اطار واحد ... ولا ادري لماذا وجدتني ادفع كل ما كان معي من نقود ثمنا لها ...

وعدت بها الى البيت ، ولبستها في يدي بعد ان ضبطت الاولى على توقيت جنيف حيث اعيش ، وضبطت الثانية على توقيت الزمن في عدن ...

بعد اسبوع جاء الرد بالموافقة على استقبالي كصحفية اجنبية سويسرية !

وضحكت طويلا امام المرآة . انا سويسرية ، والليل في شعري وعينيّ ، وبشرتي الصحراوية !.. انا اجنبية ؟ وما معنى ذلك التوق المرعب الى ان اكون هناك ؟.. ولماذا ارتجف وانا احمل بطاقة السفر واقرأ اسم عدن ؟.. ولماذا لم احس بشيء من هذا في رحلاتي الصحفية السابقة كلها ... الى نيويورك وهاواي ومدن اخرى طالما حلمت بها ؟) .

آه كم رأسي ثقيل ... يجب ان اكتب شيئا للجريدة التي اعمل فيها ...

منذ غادرت جنيف لم اكتب حرفا واحدا ... منذ ثمانية عشر يوما .. كنت اطوف اليمن .. اركض خلف طيور الماء البيضاء على شاطىء أبين .. والملم اصدافها ... وكنت انتشي بالغناء العدني في مسارحها .. وكنت اذهب الى متحفها واسير في شوارعها والقلم في يدي .. احط ملاحظات صحفية وفي داخلي شعور مبهم بانني لن اكتب شيئا .. ولن اخرج من هنا .. وكنت اجلس امام فضل ، احد ثوارها وقادتها ، اسجل اراءه وانا احاول ان امصه بنظراتي مثل اسفنجه ... كنت وانا احمل القلم والورق اشعر انهما ادوات تنكري، وانني كصحفيه اؤدي دوري في مسرحيه هي المبرر لوجودي هنا .. لكنني كنت في اعماقي احيا للمرة الاولى منذ اعوام بعيدة .. كنت مثل سمكه اعيدت الى البحر بعد ان تخبطت طويلا في شوارع نائية في قارات الغربة .

احببت فضل . احببته حتى الوجع . حتى الحمى . احسست بالحمى اول مره سمعته فيها يتحدث ... لا بل احسست الحمى اول مره وضعت قدماي هذه الارض تلك الليلة المسحورة (مطار عدن . الفجر لم ينسق بعد . هبطت من الطائرة . هاجمتني رائحة عطرية دافئة . المطار صغير وفقير والطائرات قليلة ، ولكن نبتة وحشية الخصب نمت قرب المدخل رغم اسفلت المطار .. شجيرات غامضة الخضرة تفتحت فيها زهور وردية استوائيه حارة اللون لها رائحة عطرية خاصة .. رائحه نفاذة دافئه هاجمتني منذ اللحظة الاولى . كنت فيما مضى احس ان الروائح في اوروبا خافتة كالذكريات . هنا الرائحة نفاذة تجلدك .. ووسط هذه الحديقة الصغيرة تناثرت طاولات ومقاعد لتكون مقهى المطار . ومقاهي الترانزيت في مطارات اوروبا التي تهت فيها هي دوما مكان كئيب تجلده الريح الممطرة والصقيع ، وفي احدى ردهاته المغلقة يحتسي المسافرون الضباب والبرد والغربة مع قهوة الصباح .. آه كم شربت قهوة الغربة في صباحات المطارات النائية الموحشة .. هنا انفاس الفجر الحارة توحي بانني في عالم اخر .. عالم لا يعرف الشتاء .. والروائح العطرية كثيفة الحضور ...

وتقدم مني شاب محروق البشرة يسألني بالفرنسية : مدموزيل أيدا ؟ انا شودري الاحمد . انتدبتني وزارة الاعلام لاستقبالك .

لم اقل شيئا . كنت حزينة حتى الموت لانه خاطبني بالفرنسية . انا هنا في وطني ، وانا هنا سويسرية . هذا ما يقوله جواز سفري على الاقل !..واسمي عايدة وينادونني أيدا ! تحجرت وتذكرت كل ما سبق وقرأته من اكاذيب شعرية وادبية عن العودة الى ارض الوطن، وكيف يركع العائدون ويدفنون وجوههم في حفنة من ترابهم . اكاذيب ادبية . لم اركع . كنت مشلولة . ولم اتناول حفنة من التراب ، فقد كان الاسفلت تحت قدميّ صلبا ، واحسست ان الدم يندفع الى وجهي كانني مرغته للتو فوق اسفلتها ... ولكنني كنت واقفة بلا حراك ، وايقظني صوت الشودري يقول بالفرنسية ايضا : الاخ فضل النديم .

كانت اول مرة اراه . كان نحيلا او ربما بدا لي هكذا بوجهه المتعب بينما اضواء الفجر تنبلج وترمي غلالتها الرمادية فوق ملامحه المليئة بالقلق والارهاق . كان له وجه رجل لم ينم منذ ايام ، وربما منذ اعوام ... ولولا ذلك الشعاع النفاذ الذي كان ينبعث من عينيه وكله عناد وشراسة ، لظننته مشرفا على انهيار عصبي ..

وبدا لي من الحركة غير العادية في المطار انه كان يودع ضيفا ما. قال لي بالانكليزية وبلهجة شخص ليس لديه وقت يضيعه بالمجاملات : آه . مندوبة جريدة « نوفالو جنيف » ؟ تذكرت . استطيع ان اقلك بسيارتي الى عدن .

في السيارة وقد غادرنا اصغر وافقر مطار شاهدته في حياتي ، ولكنه المطار الوحيد الذي تفوح منه رائحة عطرية برية حارة ـ اتجهنا

نحو عدن ...

وبدأت أخلع أكوام الثياب التي كنت ارتديها ... كان الجو حارا حارا كما كنت اتذكره في احلامي التي طالما دارت في اليمن .

المدرسة الداخلية في ضواحي جنيف باردة باردة . ليلة عيد ميلادي الرابع عشر تذكرت امي التي لم أعرفها وحقدت عليها لانها تجرأت على ان تموت وتتركني . وتذكرت الشيك الذي وصلني ، والذي يمثل بالنسبة اليّ أبي ، ونمت دون ان ابكي ، لكنني اخرجت من درجي المقفل مدفأة كهربائية أسرق بها الدفء واضعها في غرفتي الصغيرة ليلا في ليالي الوحشة والبرد ، ثم اخفيها بحذر مع خيوط الصبح الاولى قبل ان تكتشف الراهبة ذنبي . وأشعلت المدفأة الكهربائية ، وحلمت ليلتها بأن الدفء شديد شديد ، وبأنني اسير مع أمي في أحد شوارع اليمن ، وانني صغيرة والعرق يتصبب مني وأريد أن أقبل امي ولكنها طويلة طويلة ونائية وانا صغيرة وانا نمر امام باب معبد هندي وان رائحة نفاذة معينة تفوح منه ، وان امي دخلت الى المعبد وخلفتني في الخارج ، ثم يشتد الحر وتطلع الشمس مثل وحش له اسنان من النار ، وان الشمس تقترب مني وتقترب وانني ألتهب وانني أصرخ وأصرخ ...

واستيقظت وانا اصرخ ، وكانت النار قد شبت في الستائر وفي ملاءة فراشي وكادت تمسك بي . لقد قربت المدفأة تلك الليلة اكثر مما يجب ... ويومها دفعت « الشيك » الهدية ثمنا للضرر المادي الذي أحدثته ، كما ان الراهبة اللئيمة هددتني بجهنم عقابا للخطيئة، ولم تقل شيئا عن سرقتها لثمن الوقود الذي ندفعه ، والذي تبيعه بدلا من ان تدفئنا به في ليالي وحشتنا نحن نزلاء المدارس الداخلية الذين حتى بعد أن نغادرها نحس بأن العالم كله ما يزال مدرسة داخلية بالنسبة الينا .. ونظل طيلة ليالي عمرنا نحس لسع بردها الوحش الكثيف ...

للمرة الاولى منذ زمن طويل ، أحسست بمتعة الدفء ، وزايلني البرد تماما بينما نحن في طريقنا من المطار الى عدن ، وخلعت اكثر من خمس « كنزات » . انفجر فضل ضاحكا وقال بالعربية : ها أنت تتصببين عرقا والشمس لما تطلع بعد ، ونحن في منتصف الشتاء بين كانون الثاني وشباط ...

وأدهشني انني أفهم العربية جيدا رغم انني لم أسمعها باللكنة اليمنية منذ زمن طويل ... كنت ألتقي ببعض الفلسطينيين والسوريين في أوروبا ، لكن اليمنيين من ابناء وأحفاد السلاطين وحاشيتهم الذين هربوا أموالهم الى اوروبا كانوا يتجنبونني ، فرغم ان والدي كان واحدا من طبقتهم الكريمة ، الا ان أمي كانت فيما يبدو خادمة لديه ولم تكن من طبقة « الاسياد » وانما من « الخدام » ... ربما لذلك نفاني بعيدا كي لا يرى في وجهي ما يذكره بما يظنه عارا على طبقته ... فليذهب الى الجحيم هو وطبقته ورقمه السري في بنكه السويسري (لقد ذهب على أية حال وانقضى الامر) ..

الضوء يملأ الدنيا ونحن ندخل عدن ، الجبال سوداء بركانية وحشية الصخور والجمال ورياح الفجر البحرية الدافئة التي تأتيني عبر نافذة السيارة تحمل اليّ رائحة خاصة وايحاءات عجيبة .. تذكرني بأنني في الارض التي حلمت بها ، حلمت بأنها ارض الاساطير وقدم آدم ومركب نوح والبخور والعاج وبلقيس ... لم أكن أدري يومها انني سأنسى كل شيء عن هذه الصورة الوهمية ، وانني في أرض الحقيقة العربية الاولى : الثورة !.. وأن عدن هي جمرة الجزيرة المعتمة ... أتأمل وجه فضل في النور .. منذ الدقائق الاولى أثار في نفسي شهية لمعرفته ... لرؤيته في ضوء أفضل .. لسماع المزيد من كلامه .. للنفاذ الى ما تحت جلده .. لكنه كان شحيح الكلام ... لم يفتح فمه الا حين اقتربت السيارة من شارع تبدو فيه بيوت التنك والفقر المروع قائمة خلف بيوت عصرية حديثة .. وبدت الابنية الحديثة في هذا الاطار الكثيف من الفقر الذي لم أر لمظاهره مثيلا من قبل مثل ديكور لفيلم « وسترن » داخل قرية من البؤس .. قال فضل بحرارة : هذه الابنية كانت قبل الثورة للانكليز ولعملائهم.. وخلفها يعيش شعبي كما ترين ... هل تفهمين العربية أم تفضلين أن أحدثك بالانكليزية او الفرنسية ؟

وكنت أفهم . كنت أجد صعوبة في الرد بالعربية ، لكنني كنت أفهم كل حرف ، وكنت أستمتع بسماع كلماته مثلما يحس سجين في المنفى حينما يسمع أغنية كانت أمه تنشدها له في طفولته لينام ، يغنيها سجين آخر عبر الجدران الحجرية للسجن ...

توقفت السيارة أخيرا أمام فندق « كريسنت » . وتمنيت لو ابقى معه ... أحسستني قريبة منه ، وأعرفه منذ زمن طويل ، حتى ادهشني ان عليّ أن أقيم في الفندق وحدي هنا بدلا من ان ارافقه الى داره !..

لم يبد عليه انه يشاركني شعوري . قال لي بشيء من البرود : أنا ورفاقي على استعداد دوما للاجابة على أي سؤال . أتمنى لك اقامة طيبة هنا ...

وذاب مع خيوط الشمس الاولى ... وأعطاني الشودري رقما وقال : متى استرحت من رحلتك اتصلي بي لنبدأ العمل ...

ومن يومها لم أعرف الراحة ! وحين ضمتني غرفتي وحدي ، لا أدري لماذا أدرت عقارب ساعتي المزدوجة وبدلت توقيت الساعة التي تشير الى توقيت جنيف ، فجعلتها تشير الى توقيت عدن . صارت الساعتان تشيران الى توقيت اليمن . وحين أخرجت صورة ريكاردو ، شاهدت فيها وجه فضل) .

يد فوق جبيني .

بصعوبة أفتح عينيّ .

الممرضة بثيابها البيض تقول : هل تسمحين بقياس حرارتك ؟.. خلف رأسها ما تزال المروحة ترتض .. والعرق يتصبب منها ومني ومن الجدران ومن الخص الخشبي للنافذة . أسألها كم الساعة .. فخلف الخص الخشبي للنافذة يمر بي كل ليلة طائر يشبه الغراب... ينقر خشب النافذة ويهزها بجناحيه كأنما يحاول ان يوصل اليّ رسالة ما ... كأنه رسول من مكان ما يريد مني أن أرافقه الى حيث لا أدري ...

قالت : انها الثانية عشرة ظهرا ... نسيت ان اقول لك ان السيدة فاطمة النديم زوجة الاخ فضل اتصلت بك بينما كنت نائمة.. انها ترغب في زيارتك وستأتي بعد أن تنتهي من عملها ...

ـ عملها ؟ وهل تعمل ؟

ـ طبعا . انها أستاذة ومن زعيمات الحركة النسائية عندنا .. زوجة فضل !..

ذلك الكيس الاسود الذي كان يتدحرج خلفه في الشارع في الليلة الثانية لوصولي الى عدن .. شاهدتهما ولم يشاهداني .

كنت في سيارة وزارة الاعلام مع الشودري . شاهدتهما من بعيد ، كان يسير ، وكانت تسير خلفه على بعد خطوة ، وكانا كغريبين أرغما على المشي على رصيف واحد بالصدفة .. كانت شيئا ملفوفا

بملاءة سوداء يتحرك على الرصيف قال الشودري ان اسمه (الدرع) ... وجدت في هذا المشهد بعضا لتفسير الوحشة التي تومض من آن الى آخر في عينيه ...

قررت : كم هو مروع ان يكون مناضل كهذا وحيدا ، عاريا من نصفه الثاني ...

قررت : افتقده . ويجب أن أراه .

قلت للشودري في اليوم التالي : اريد اجراء مقابلة مع الاخ فضل . هل يوافق ؟

قال : أشك في ذلك . انه مرهق ، وقد أعلن أليوم عن اعتكافه في مكان ما خارج بيته ...

قلت له : ارجوك ان تحاول ...

في اليوم الذي تلا قال الشودري : وافق الاخ فضل على استقبالك . اختصري في اسئلتك لانه متعب ...

كان فضل وحيدا في منزل يطل على شاطىء بحر العرب ...

فتح لنا الباب . بدا شاحبا وأصغر سنا ... ولاحظت ان يده الممسكة بالفليون ترتجف .. وأمامه كتاب « المسيح يصلب من جديد » لكازانتزاكيس . سعرت بعاطفة جارفة نحو ذلك الرجل الرفيق الصلب كالفولاذ ، الذي يمسك بأصابعه النحيلة عشرات من المتاعب والازمات ... فالانكليز لم يخرجوا من عدن الا بعد ان خلفوا لها تركة هائلة من التخلف والفقر والمشكلات ... وخلفوا للثوار انقاما من المصاعب تنفجر واحدا بعد الآخر .. أحسست بعاطفة جارفة نحوه حينما لاحظت أسماء الكتب التي تملأ المكان . انه مثقف . أي انه معذب . حينما يكون السياسي او الثائر مثقفا تتعمق قدرته على الحس بالصراع والالم ... قال لي بصوت خافت جدا : أهلا بك ... هل تحبين ان نتحدث بالعربية ؟..

وتحدثنا طويلا عن تجربته قبل الاستقلال وبعده ...

ـ أيام الاستعمار ، كنت أتنكر باللحية والعمامة وأنا مطلوب حيا أو ميتا ، وأتحرك أمام أعين الانكليز دون ان يعرفوني ... في البداية أحسست بالخوف وأنا أتجول هكذا في صنعاء ... أتنقل في البلاد.. ثم ألفت ذلك ، ويوما بعد يوم مات في قلبي ذلك النبض الحار الذي يشبه اللذة والمدعو الخوف .. لم يبق من تلك الايام غير آثار قيود السجان على قدميّ . بعد الاستقلال واجهنا مشكلات اكبر واخطر...

قلت له بالعربية متوكئة في بعض الالفاظ على الانكليزية ، وكنت فرحة بها مثل طفل اكتشف نشوة المشي للمرة الاولى :

ـ انكم تواجهون مشكلة مرعبه هي هبوط الدخل القومي بعد الاستقلال هبوطا هائلا ... فالوعي السياسي ليس بديلا عن الطعام ، وكل ما في الامر انه يساعد على مزيد من الصبر ... ماذا لديكم من خطط ؟

والتهبت عيناه ، وانطفأ غليونه .

وبدأ يحدثني بايمان مدهش عن المسيح الذي يحمل السيف ، وعن تأميم البنوك ... والتنقيب عن المعادن ... والثورة التي خلقت في أقطار عربية أخرى ثوارا بالكلمات والسموكن ، وثوار مقاه ، لكنها في عدن المتقشفة المناضلة تخلق عمالا حقيقيين يثورون في الحقل والمصنع لا في الحفلات واندوات التلفزيونية .. وكان يتحدث .. وكنت أكتب .. وخلفه على الجدار التمع خنجر حاد ... وكلما ازداد كلاما وحماسا كنت أحس بالخنجر يزداد حدة والتماعا ويكبر ويكبر حتى يغطي الجدار كله ... والتهبت حماسا ... والتهبت الشمس في البحر خلفه ، وأضاءت أمواج الخليج وكان ضياؤها خناجر ، آلاف الخناجر التي تعوم على مياه الخليج ، وخيل اليّ أن آلاف السباحين يحملونها في أفواههم يسبحون تحت الماء كأسماك القرش الشرسة ويحومون دفاعا عن الشاطىء الذي استبيح مرة ، ورست فيه للمرة الاولى باخرة الاستعمار ، وخرجت منه للمرة الاخيرة .. ابدا ...

ومرت الدقائق .. لا ، بل الساعات ، فقد سمعت صوت رحيل سفينة في الافق البعيد ... وحزنت ... وقلت له فجأة :

ـ هل استطيع استعادة جنسيتي ، والبقاء هنا ، والعمل هنا ؟

قال بحرارة خنجر يعانق غمده دون ان يؤذيه : ـ طبعا .. ستبقين) .

الحمى تمزقني ... اشعر اني عاجزة عن تذكر تفاصيل الايام الباقية معه ... آه كم أحببته ... كم بكيت في الليل حينما كان يعيدني الى فندقي ، ثم يتلاشى في الظلمة مثل نقطة مضيئة تبتعد ، ويخلفني وراءه مثل شيء ، مثل شجرة ، مثل المقاعد الحجرية في الحديقة أمام الفندق ... أنها الروحة التي تمزق افكاري . لا .. لست مريضة . لست محمومة ، انه النحر ... اوقفوا هذه الروحة.. اذن ستأتي زوجته .. اذن زوجته الاستاذة وسيدة مثقفة ، وانا التي ظننتها طيلة هذه الايام زكيبة محشوة بالاطفال والضجر ...

تأتي الممرضة وتقول :

ـ حرارتك مرتفعة جدا . اتصلت بالطبيب وسوف يحضر وقد ينقلك الى المستشفى .

اذن لم تعد الابر المحشوة بالبنسلين تجدي امام ارادتي . اريد ان ارحل مع الغراب حينما يجيء الى حيث لا ادري ....

زوجة فضل ستأتي بعد أن تنتهي من عملها وانا التي ظننتها رحما يجتر القات والثرثرة والتثاؤب .. طيلة لحظاتي الحلوة مع فضل لم افكر بها ولو لحظة واحدة ..

كنت اعتبرها من فصيله اخرى لا دخل لي بها .. بل كنت احقد عليها .. كنت احس ان « فضل » بحاجة الى امرأة تفهم حقيقة مهامه وتقف الى جانبه لا مجرد آلة حاضنة لاطفاله ... لم اساله عنها قط حتى في احلى لحظاتنا ... وحتى حينما حدثته عن حياتي وعن ريكاردو وسألني مطولا عن علاقتي به ، لم يخطر ببالي ان اساله عنها ....

الروحة التي تدور في السقف تقترب مني باستمرار . تكاد تمزق رأسي . ظلالها المسعورة تفتت ذاكرتي . الممرضة تحمل وعاء ماء وتقترب مني . عبثا أثبت نظراتي عليها او على اي شيء ... النمل عاد يخرج من وسادتي غزيرا ، والخنجر ، هديته ، أضمه الى صدري ـ يجب الا أنسى ، يجب ان اوصيهم بدفنه معي ـ . الممرضة تحمل وعاء . تضع على رأسي كمادات باردة ... اتركيني ، أتركي صور سعادتنا المحمومة تفور في رأسي ... ثلوج العالم كله لن تبرد صورته في اعماقي ، وابخرة ذكرياتنا داخل دماغي ...

(اول مرة قال لي احبك ، قالها كما لم يقلها لي اي انسان قط من قبل . هتف اليّ ظهرا ، ربما من مكتبه ، وقال لي فجأة : قررت انني احبك . وظللت صامتة . شعرت بأن صدري ينشق وانني لم اعد قادرة على التنفس وبدأت الدموع تسيل من عينيّ . ظل هو ايضا صامتا ، واحسست صمتنا عناقا فيه شراسة الالتصاق اكثر من اي

عناق جسدي ...

تذكرت عشرات الرجال الذين قالوا لي « احبك » على ضفاف السين وفي حانات لندن وليالي جنيف .. لم تدمع عيني قط ، بل كثيرا ما أعتبرت الامر نكتة لطيفة ، او ثرثرة غير هامة ... وكنت دوما اضحك للكلمة ولا احس بانها تبدل شيئا في مدار حياتي او سلوكي او حتى غربتي .. كلمة « احبك » كان لها هذه المرة وقع آخر ... نكهة مختلفة ... ربما لانك قلتها بهذه البساطة ، وفي ضوء النهار ... وربما لانك كنت وحدك الذي أحببت ... اجل ! قلت لي احبك ، وصمتنا قليلا ثم اغلقنا معا سماعة الهاتف ...

وجلست افكر .. ربما للمرة الاولى أحب حقا ... فبلك لم احب قط رجلا ضد مصلحتي .. كنت وحيدة في هذا العالم ، وكان عليّ دائما ان آخذ بعين الاعتبار عملي ودراستي وعيشي حين افكر بحب اي رجل ... ويبدو انني كنت آعي ذلك وعيا غامضا ، لانه لم يحدث قط ان احببت اي انسان يمكن ان يسبب لي اي اذى ، او دمار نفسي آو معنوي ... هذا ما الحظه الان وانا اذكر الرجال الذين مروا في حياتي ، لم يكن بينهم من كان عليّ ان اضحي حين أحبه .. لم يكن بينهم من كان عليّ ان اشارك زوجته فيه .. وحتى الرجال المتزوجون الذين خرجت معهم في بعض السهرات ، لم يكن يضايقني كونهم متزوجين او لهم عشيقات ، اذ لم اكن أحبهم ، بل على العكس كان يريحني ارتباطهم بنساء اخريات لان ذلك سوف يحميني من مضايقات الحاحهم ... كانت هذه اول مرة احب فيها حبا اعرف انه سيدمرني ، دون ان املك له شيئا سوى مزيد من الاندفاع والجنون ... وها انت تقول لي انك تحبني ، ولن يهدىء من وحشية اندفاع كوكبي الى كوكبك شيء .. وسيكون الاصطدام مروع الدوي والنار والهشيم) ..

الممرضة تستبدل الضمادات الباردة بكيس من الثلج تضعه فوق رأسي وتمضي . احس والثلج فوق رأسي اني مثل بركان تكدست فوق ذروته الثلوج ... تضحكني الفكرة ... اسمع صوتي وانا اضحك ... ضحكي يستحيل انتحابا ... لقد اضعت الخيط الفاصل بين الضحك والبكاء ، وفي فمي طعم غريب لا ادري آن كان طعم الموت او الحمى او الدم او مزيجا من ذلك كله . وجه فضل يلاحقني كاللعنة واحسه بلونه الصحراوي جزءا من هذه الارض التي احببت ... بل اني حين اتحدث به للمرة الاولى لم اكن ادري اكنت اتحد به ام بالارض تحتي ... فقد احببت الارض والناس هنا ... احببت عري صراعهم مع الطبيعة والعصر من اجل البقاء ... هنا احسست اني جزء من قضية ... ان هنالك ما افعله .. ان هنالك من يحتاجني وبالتالي يمنحني سببا للحياة .

اول دقائق وصولي ، واجهت الوجه الاسطورة لليمن ... يمن الخرافات والدفء وألف ليلة والاساطير وجنات عدن . وفي الاسابيع القليلة التالية واجهت الوجه الحقيقي ، الوجه المأساة ، الوجه الشرس الذي يفرض كفاحا معادل الشراسة ... واجهت جحيم عدن بعد ان قرأت الكثير عن اساطير جناتها ... والتصقت بالوجه الاخر، احسست بالانتماء .. وجدت معركة تخصني وكنت اقرأ صحفها الصفيرة كل صباح وانا احاول ان افهم بالضبط كيف يحاول هذا الشعب النبيل المزق الارض الى شمال وجنوب ، المثقل بتركة الاستعمار ، ان يكون وان يستمر دون ان يلعق حذاء الدول القائمة على مبادىء لا انسانية (اسمها الرسمي امبريالية) ....

بدأت جولتي في محافظاتها الخمس مع فضل الذي كان ذاهبا الى جبال يافع ...

(كان ذلك في اليوم التالي للقائنا في بيته الملاصق للمنارة ... غادرنا عدن ...

السيارة الروفر تركض الى شاطىء البحر .. .قال فضل بغضبه الفتاك : الاستعمار لم يكلف نفسه عناء شق طريق واحدة بين عدن وبقية المحافظات ...

وطار سرب من طيور البحر البيض ... والسيارة تركض موازية للشاطىء تحت رحمة المد وانجزر ثم تنحرف لتسير بين الكثبان في شبه مغامرة مستديمة ..

مررنا بسيارة منقلبة بين الرمال وكانت الشمس قد اكلت طلاءها ولم يبق منها الا بعض القماش الذي يغطي جسدها .. بدت لي مثل جسد انسان مات منذ زمن طويل والتهمته صقور الصحراء ، وقال فضل : ما يزالون في الريف ينظرون الى السيارة على انها دابة ، وما ترينه من قماش وتزيينات هو بقايا « سرج » الدابة الذي يغطي بعضا من هيكل السيارة ... انت يا عايدة قادمة من بلاد مأساتها التخمة التكنولوجية والتخلف الانساني .. هنا نواجه العكس ، لدينا تخلف تكنولوجي ولكن انساننا ما يزال بالمعنى الاصيل للكلمة ، لا بمعنى بشر المجتمعات الاستهلاكية ...

وتوغلنا في الريف . وكف فضل عن الفاء محاضراته . بدا شاردا وكئيبا ..

وصلنا الى « أبين » ...

بناء صغير عليه لوحة : « فرع المقر العام لتنظيم الجبهة القومية في أبين » ..

ندخل ..

الرجال جبليون اشداء من ابناء جبل يافع ... غرفة بسيطة فقيرة المقاعد ، وغنية بصور الثوار العالميين .. وتجنب فضل والجميع الجلوس فوق « كنبة » مقعد واحد من « الستيل » الثمين المهترئة المخمل بدت لي وسط هذه الغرفة مثل رموش مستعارة على وجه راهبة خال من الاصباغ .. سألتهم عن الكرسي قالوا : انه كرسي احد السلاطين . تراه كان كرسي ابي ؟ هل قتلوه وهو جالس هنا ؟ شعرت بان الامر لا يعنيني ، فأبي الذي اعرف كان حسابا في البنك ، وقد انتهى منذ نفدت نقوده ، ومات يوم سحبت آخر شيك !..

وتحدثوا طويلا عن مشكلات الفلاح ... عن الصعوبات التي تواجه التأميم ... كان الامر ببساطة آن هنالك شعبا يحاول ان يحصل على خبزه مع الكرامة والعدالة والمساواة ... وكانت صعوبة ذلك ترسم عمليا في كل المشاهد التي تطالعني في الريف ... اطفال حفاة وشبه عراة يركضون وسط الطبيعة عزلا كبقية كائناتها ...

مع جاعم وعثمان وعبد الباري واحمد تجولنا بين قرية المخزن وتخوم زنجبار وقرية الحصن وحصن غضنفر وجعار ... و... و... والاسماء تختلط في رأسي والصورة واحدة ... بؤس لا حد له ... تذكرت بحقد وانا ارقب الاطفال العراة واجسادهم النحيلة كعصافير الشتاء الجائعة ، تذكرت الكلاب السمينة المدللة في جنيف المربوطة امام دكاكين باعة اللحوم بينما اصحابها يختارون لهم اشهى الوجبات والشرائح الطرية ... وشعرت بانني لن استطيع قط ان اعود الى جنيف لاعيش بسلام كانني لم ار ما رأيت .. كانني حين ارحل من بلد الى آخر ارحل من عصر الى آخر .. وهذا عصري !

وعدت ليلتها من جبال يافع البركانية الخامدة الى عدن ، وانا قانعة بان البركان الذي خمد في احشاء الارض قد استعر في نفوس

ابناء هذه الارض وسرى نسغ النار والحديد في عروقهم ... لم يكن يفوق بؤسهم سوى رغبتهم في حماية طفلهم العظيم : الثورة .

عدنا ليلا ... قال فضل : هل انت متعبة ؟

ـ بل حزينة ... حزينة حتى الوجع ...

وشدني من يدي ، ودخلنا الى المنارة الملاصقة للدار التي كان « يستشفي » فيها ... كانت رائحة زهر « الكادي » التي قطفها لي تفوح من صدري حيث دفنتها .. كنت اتأمل اصابعه وهي تقطف الازهار في الظلام واكاد لا اصدق ... هذه الاصابع التي طالما توترت على زناد بنادق ورشاشات وشدت عليها لتطلق النار ، هذه الاصابع التي طالما التفت حول مقبض خنجر في الظلام وتحفز صاحبها للقفز كفهد ، ها هو الان امامي بالاصابع نفسها يقطف ازهار الليل والحب كأنه مخلوق أثيري من مسرحية « حلم ليلة صيف » لشكسبير ...

ـ الا تذهب ابدا الى بيتك حيث اولادك وزوجتك ؟...

قال لي كأنه لم يسمع سؤالي :

ـ كلي شيئا من هذا « المقرمش » . لقد ابتعته خصيصا لك كي تتعودي مذاق طعامنا ...

وتسلقنا المنارة ... درج طويل ، والجدران مدهونة بالاخضر مثل قاع البحر ... درج لولبي متماوج ، وانا اصعد ، وبعد لحظات شعرت انني اسير في دهاليز مدينة تحت قاع البحر ... انني في قارة منسية في الاعماق وحدي مع فضل ... ووصلنا الى القمة ، وكانت الاضواء تنعكس على مئات المرايا وعنها ، وبين المرايا وقف فضل ، وشاهدت آلافا من انعكاس وجهه في المرايا المشهورة كالسيوف وآلافا من عينيه تحدق بي ، تأكلني ، وشعرت بالدوار ، مددت يدي لامسك به ولم ادر اي وجه من الوجوه في المرايا هو وجهه ... احتضنني وجرني الى الشرفة ... احاطني بساعده وسرت الرعشة في جسدي ، الرعشة التي لم أعرفها قط من قبل الا حين كنت اصاب بالحمى ـ حين كان يضمني رجال أوروبا كنت اشعر بالملل واحس بان اذرعهم قيود مملة ، وكنت اتسلى بمحاولة تخمين اسم عطرهم او نوع دخانهم ! ـ . وخرج معنا رجل المنارة العتيق الى الشرفة ، وكان النور ينطفىء ويضيء ، وقال بصوته الهرم الذي يشبه صوت الريح : ها نحن نطل على قارات وبحار ثلاثة .. هنا افريقيا ... هنا آسيا ... حدقي جيدا في الظلام تري الهند ... والبحر الاحمر ... والجزيرة العربية ... واحسست بأن الزمان يقف ، والريح تنصت بفضول ... واحسست أن المنارة تكبر وتكبر حتى تغطي اليمن كلها وشبه الجزيرة العربية .. وتضيء وتضيء ، وثمة رجال مقنعون في الظلمة يرجمون المنارة بالحصى ولكن المنارة تضيء ...

سرنا على الشاطىء في الظلمة شبه المقمرة ... فضل يستنشق الهواء ملء رئتيه ... جلسنا على الارض فجأة منهكين ... قال لي : « آه كم انا متعب ووحيد ! » .

واغمد رأسه في صدري كما سبق واغمد حبه منذ ذلك اليوم ، يوم اهداني خنجره ...

قال : لولا غرقي في العمل الوطني ، لقتلتني وحشتي كرجل ... ولكن ، هنالك لحظات يستيقظ فيها القلب الوحيد ... ويحس بحاجة الى امرأة حقيقية . احبك انها الشقية ...

واتحدت به فوق التراب والاشواك والحصى ... لا بل اتحدت بجسد الارض وبجسده معا ، كانا شيئا واحدا يحيطني كشرنقة ، وكنت واثقة من ان الارض تحتي كانت ترتعش وتخفق كجسد حي وحار وندي ... واننا في لحظة ، صرنا ثلاثتنا شيئا واحدا .. هو وانا والارض ...)

المرضة تقول بغضب : لماذا رميت بكيس الثلج عن رأسك ؟ كفي عن الحركة والكلام ... انك لا تتقنين فن المرض ...

وضحكت ... ضحكت كثيرا .

تقول المرضة : كفي عن البكاء ... انت مصابة بحمى مداريه هونغ كونغية لا يحتملها الا ابناء هذه الارض ... لقد قتلت هـذه الحمى كثيرا من المستعمرين الذين جاءوا الى هذه الارض ..... ولكن الطب تطور ، وستنجين ..

واردت ان اشكر لها (لباقتها) وتطميناتها ، لكنني احسست ان حلقي مثل حنجرة مذبوحة ، ترفض الاصوات أن تغادره ...

امسك بصورة ريكاردو ، وأرى فيها صورة فضل ... فضل .. آه كم وكيف احببته .. انه لن يدرك قط مدى تعلقي به ... هنالك لحظات يقسو عليّ فيها ويعاملني كسويسرية ...

(خرجت من متحف « كريتر » .. على بابه مدفع عتيق عتيق نائم ، وفوقه نام حارس عجوز بدا لي كأنه والمتحف الاثري من جيل واحد ...

في الداخل الاثار تضج حياة وأصالة ... عيون التماثيل من الاحجار الكريمة ، اكثرها مسروق ـ المستعمر الـذي يسرق عيون ابناء هذه الارض ، لم لا يسرق عيون تماثيلها ؟ ـ ... اثار مدهشة الجمال تعني بالرقي الانساني ... لاحظت ان تماثيلها كلها ترتدي الاحذية ، وتذكرت الحفاة في شوارع عدن وحزنت ... وانا اغادر المتحف ، مرت بي عن قرب امرأة مرعبة ... كانت ترتدي (الدرع) الاسود وقد غطت وجهها بمنديل اسود شبه شفاف ، مرقط بالالوان الحمراء والزرقاء والخضراء والصفراء برسوم وبقع عجيبه ، وبـدا وجهها خلفه مشوها كما لو كانت في كرنفال هيبي ...

عدت الى فندق كريسنت ووجدت فضل في انتظاري كي أرافقه الى حضرموت ...

قلت له : المرأة هنا شيء مرعب ...

قال : « الدرع » الذي ترهبينه ليس دائما حزمة من الكسل والبلادة وانما حزمة من المتفجرات احيانا . عام ١٩٥٤ كانت نساؤنا يحملن المناشير والمتفجرات والاسلحة تحت هذا القناع ، وقد قدمن خدمات هائلة للثورة قبل أن يكتشف جنود الانكليز الخديعة ... ثم ان المرأة في الريف كما رأيت حاسرة الرأس تعمل جنبا الى جنب مع الرجـل ...

قلت : يجب تحرير المرأة ... ويجب تحرير الرجل من العادات والتقاليد التي تكبل الانتاج ... وتشل العمل وتزيد البطالة بطالة ... الا ترى معي عشرات الرجال المرميين على الارصفة في الحر كالذباب المتلاشين جوعا وفقرا ؟ يجب منع القات ... يجب ...

قاطعني بحدة : من السهل جدا ان تقولي يجب ويجب ويجب ان تفعلوا كذا وكذا ... انك تتحدثين « من الخارج » مثل اي خبير اجنبي او مستشرق . انك لا تعرفين كم نعاني ... وطريقنا طويلة ومشكلاتنا لا تحل بالفذلكات اللفظية ...

قلت بعناد : يجب تحرير المرأة على الاقل ومنع الحجـاب ومساواتها بالرجل .

ـ لدينا نساء كثيرات متحررات ... ربما كان من مآسينا ان بعضهن استحلن رجالا دون ان يلحظن) ...

اشهق .. ماذا حدث ! أين انا . المرضة شبح ابيض . كمادات

مثلجة على جبيني من جديد ... ارجوك ... اتركيني لرحمة الحمى ... لقد تعبت ، والالم في كل موضع من جسدي .. في كل موضع شبت النار واشعر بانني ازحف عارية فوق حقل من الجمـــر ... والذكريات تشتعل داخل رأسي كالجمر ..

(تجولت وحدي في شارع الزعفران ... ثم سرت طويلا في الاسواق التي تذكرني بروائح ازقة الف ليلة وليلة ... مــررت بجامع الشيعة وتابعت سيري ... ثم فجأة في زقاق تفوح منه رائحة التوابل والكاري والدفء انتابني احساس مرعب: انني كنت هنا قبلا! كنت هنا قبلا ! سرت في هذا الزقاق ذات يوم ! وكان ذلك مذهلا لانني اعرف ان هذه اول مرة اتي فيها الى عدن وامشي وحدي في شوارعها .. ومع ذلك امتلكني ذلك الاحساس الغامض الكثيف بانني اعرف الاحجار هنا ، ثم وجدت قدمي تقوداني الى باب معبد هندي ... وفجأة تذكرت انني رأيته قبلا وأين ... كان ذلك في حلمي منـــذ عشر سنوات حين كنت في الرابعة عشرة من عمري !... انه المعبد الذي دخلت اليه امي ولم نخرج وخلفتني وحيدة . اقتربت مـــن الباب ، كان كبيرا وثقيلا وسميكا وموصدا ومن الداخل تفــوح رائحة البخور ...

ظللت افكر بغرابة ما حدث . ولما جاء فضل ورويت له ما كان قال لي بغيظ لم اتوقعه :

ــ دعيني من مشكلات ما وراء الطبيعة . لا وقت لدينا للاهتمام بها . نحن بحاجة الى الطعام والى السلاح ، ألا تفهمين ؟

في ملعب بحي كريتر ، كان الليل دافئا ، وملمس الرمل تحت اقدامي على ارض الملعب طريا وحنونا ، وكلما هبت الريح البحرية ، المعطرة بالملوحة ورائحة ازهار غامضة تنبت سرا في الليل احسستني اركض في شواطيء عقمرة عتيقة عرفت امجاد صيادي اللؤلؤ مـــن شواطيء هذه الارض ... وما زالت اصداء مجاذيفهم واغانيهم تنبثق في الالحان التي اسمعها على مسرح الملعب ... حيث اقيم حفل غنائي بسيط ... كانت هذه اول مرة اسمع فيها الغناء اليمني منذ طفولتي القديمة المنسية .. « احمد قاسم » يغني مع قرعات طبل انساني البداءة ، ودمعت عيناي وانا الحظ ان كورس الاغنية الوطنية اليمنية تتالف جوقتها من الاطفال ... كان الكبار كلهم مدنسون ، والاطفال وحدهم جديرون بالتغني بالوطن والنطق بالفاظ لوثها الكبار . اغان مليئة بالحياة والحركة فيها تأثيرات افريقية ، والموسيقى خالية من النواح ... ووجدتني ارقص بقدمي وانا جالسة على المقعد .. قال فضل : لسيا فيحفلة « جيرك » ولا في « مجمع هيبي » .. راقبــي حركاتــك ...

ولم اراقب حركاتي ... ولم ابال بالعيون التي بدأت تراقبني ... وحينما بدأت « رقصة اللوعة » ــ الدبكة اليافعية ــ قررت ان اصعد الى المسرح وادبك مع الراقصين ...

جرني فضل بيده قائلا : هيا بنا ...

سارت السيارة بنا في الخلجان المعتمة ومررنا « بالفنت بوينت » حيث كان يحلو للانكليز اقامة (انفيلات) ، وشاهدت فضل يصر باسنانه ...

قلت له : هذا المكان يشبه كابري في النهار ... وهذا الخليج من اجمل شواطيء العالم ...

ولم يبد عليه انه يبالي بالجمال الطبيعي للمكان ... كـــان البؤس البشري يسري مثل النار في الوطن وهو والرفاق يكافحون على اكثر من جبهة ...

بدا فضل متعبا ... درنا بالسيارة طويلا وهو صامت .. مررنا بمقهى يدعى « عروسة البحر الاحمر » . اصررت على الدخول . قلت له انه مصاب بالازدواجية وانه يخشى ان يرانا الناس منفردين فــي مكان عــام .

دخل معي على مضض . لم يكن هنالك « اناس » كي يرونا . كان المكان حزينا وفارغا ، و « عروس البحر الاحمر » عانس تماما ... وكان مكان (الباند) الفرقة الموسيقية فارغا والاتهم قد سكنهـــا العنكبوت والصمت .. احسست بوحشة وضيق .. سألت فضل : اين (الباند) ؟ قال : في الحقل يحرثون الارض او يصطادون الاسماك . لا مجال لدينا لتفاهات المجتمعات الاستهلاكية ، ولكنك فيما يبــدو تحنين الى هذه الاجواء . تعالي ...

جرني من يدي وفي وجهه تعبير من يريد معاقبتي ..

قال بسخرية : سآخذك للعشاء في (روف روك هوتيل) . ان اصالتك تغادرك من وقت الى آخر ... رغم انتسابك لحزب يساري في اوربا ، ولكنك لا تملكين بعد النقاء الثوري الحقيقي المطلوب هنا ... يبدو ان يسار البلدان المرفهة يمين !...

مطعم « فندق روك » يقع في الطابق الاخير للفندق الكبير . يطل على ميناء عدن المشلول الذي نامت فيه السفن القليلة الباقية منذ اغلاق قناة السويس ، ومن هناك بدت عدن حفنة من الاضواء الملونة المرشوشة بين التلال وخلف الخلجان .. المطعم مثل اي مطعم غربي ، أو هذا ما خيل الي للوهلة الاولى .

اوركسترا تعزف ، وراقصون وراقصات ، واسرة انكليزية تبدو سعيدة تلتهم (اللوبستر) الكركند وتستعمل كل « الآلات الجراحية » وعدة الاكل .. وعلى الجدران اقنعة نحاسية لوجوه بشعــة ... والسقف مضيء باضواء مختلفة الالوان كانها النجوم الملونة ... ومع ذلك كان هنالك احساس غامض بالضيق يغمرني ... كنت اشعر ان هذا المكان شيء مضحك وسط قارة البؤس المحيطة به ... فيه مباهج الحياة ، لكنه محاصر بكل قسوتها وتحدياتها .. ولا احد يستطيع ان ينسى في الداخل ما يدور في الخارج ...

بعد قليل ، دخلت مجموعة من الشبيبة العدنية بالثياب المحلية ، والقمصان السبور ، وخيل الي ان الخناجر تتدلى من تنانيرهـــم العدنية ...

التقت نظراتهم بنظرات فضل ... التهب في العيون ما يشبه الشعور بالذنب ... خرجوا من المكان ... وبعد قليل غادرناه نحن ، والمصعد يهبط بنا ، شعرت بانني لا اهبط ستة طوابق فحسب ، وانما ارحل من ارض اتوهم لاعود الى ارض الحقيقة الصلبة والواقع ... فعلى باب الفندق لاحقنا حتى السيارة شحاذ عاري القدمين . واوصلني فضل الى الفندق وغضب شرس ينبع منه ، ولم يقل كلمة واحــدة) ..

من جديد توقظني الممرضة بكماداتها الباردة ... ارجوك .. دعيني .. قلت لك ان لا شيء يجدي ... ما زلت ازحف عارية فوق الجمر ، واحس اني بدأت انهي مسيرة العذاب ... واتلاشى ....

متى يأتي فضل ؟ سأقول له مرحبا ... مرحبا ... مرحبــا العدنية ، الكلمة المسحورة التي تعني اجل ، واتفقنا ، واهـــلا ووداعا ... « مرحبا » تلخص الحكاية كلها ...

(مرحبا فضل ...

كنا في الطريق الى لحج ...

مرحبا ابين .. يافع .. زنجبار . حضرموت .. مرحبا
مرحبا فضل ...
قلت : حول القضايا الدينية يجب ان ...

قاطعني بشراسة : لا اريد ان اسمع منك كلمة يجب ، بعد هذه الرحلة الى لحج ، تكونين قد عرفت وطنك ، ومن الغد ، تغادرين الفندق ، وتعملين معنا وتكسبين رزقك وتقطنين مع امي وتستعيدين جنسيتك ... او تعودين الى جنيف وريكاردو وكلبكما المدلل . لسنا بحاجة الى « محاضرين » ، نحن بحاجة الى عمال ... هل تفهمين ؟.

وفهمت ... كانت الشمس المحرقة تجلد الطريق ، والغبار يتسلل الى حلقي وانفي ، والدموع بدأت تسيل من عيني ... ضحك بقسوة كأنه يرقب حيوانا قطبيا يمضي يومه الاول في خط الاستواء .

واخيرا بدت لحج بلدة غارقة في الرمال ، فيها حزن صخري جاف ، واعمدة من الغبار المضيء تنتصب بين ازقتها والشمس ... وشعرت بدوار ... وبدأت الاشياء تهتز ، الدكاكين الصغيرة الفقيرة ، والاقمشة المعروضة ، والزنانير الجلدية الحاملة للرصاص ، وصور عبد الناصر المعلقة خلف اغصان القات الخضر ، والعنزات التي كدت اتعثر بها ... وانحرفنا عن الطريق العام الى الازقة الاكثر فقرا من الفقر ، وطاردنا بعض الاطفال وكانوا فرحين برؤية فضل وسألهم السائق كيف تعرفوا عليه فقال احدهم ساخرا منا « شفناه بالدرزان » ... (اي بالتلفزيون) ... كان مدهشا اية سخرية وحيوية وعناد يتمتع بها اولئك الاطفال ! كانوا يقفزون حولي كالشياطين الصغار ، وكنت اتلاشى تحت اعمدة الشمس المدارية ، اتلاشى ... الاصوات تروح وتجيء كأنها قادمة من بئر بعيدة .. طفلة صرخت وهي تتأمل ثيابي بدهشة . « ياسين علينا » ...

« ياسين علينا » ... وسمعت صوتها يعلو ويعلو ، وشاهدت عشرات العيون الصغيرة المستديرة تحدق في وجهي ساخرة وشرسة وهي تزعق « ياسين علينا » ... وتمسكت بجدار معصرة الزيت العتيقة ، ثم شعرت بأن البناء العتيق كله يدور معي ، يدور يدور ... ثم تحول العالم الى صفائح فضية لماعة حادة تنغرس شفراتها في عيني . واستحال كل ما حولي الى وهج ابيض شرس حار لا متناه ...

امسك فضل بيدي وجرني الى السيارة ... لا اذكر بالضبط كيف عدت ، كل ما اذكره هو انني شعرت بأنني كنت اسير على ارض صخرية ثم تحولت الى رمال سائبة وانني بدأت اغوص تدريجيا في الرمال وان الرمال بدأت تندفع الى فمي وحلقي ... وانني اختنق ...

اذكر انني فتحت عيني .. كانت السيارة تركض وسط غيمة من الغبار ، ثم انفتحت هوة تحتي ، وبدأت اسقط في بئر بلا قعر) ... الممرضة تقول : جاء الطبيب ....

عبر ابخرة الحمى عبثا اتبين وجهه . حتى صوته يخيل اليّ انه قادم من قاع بئر ... يتحدث الانكليزية واتميز من لكنته انه هندي او باكستاني ... يتحسسني .. يقول » اشياء كثيرة للممرضة ... يضعون على وجهي كمادات لا ادري ان كانت حارة او باردة ... احس بحركاتهم السريعة حولي كأنهم يحاولون حصار كوم من الرمل بدأ يتسرب من بين ايديهم الى هوة ما ... يغرسون في جسدي ابرا ... ثم يهدأ كل شيء ويتركونني وحدي واسمع صوتا يقول آه واميز فيه صوتي ... وافتح عيني فجأة .... كما يستيقظ النائم حينما يقترب منه من يريد اغماد خنجر في جسده ، بهذه الحاسة الغامضة استيقظت ..

كانت تقف امامي سيدة جميلة جدا ، كاشفة الرأس ، ترتدي الملابس العدنية وقد سقطت الملاءة السوداء عن كتفها ...

كانت تتأملني . ولم تكن تحمل خنجرا وانما ابتسامة ... ومع ذلك لم يفارقني حسي بالخطر . نهضت في فراشي . الى جانب الفراش وسط مجموعة الادوية كان هناك الخنجر الذي اهدانيه فضل، خنجر الجدار في بيته قرب الخليج ... وايضا لسبب اجهله مددت يدي لاخفيه عنها ، وكانت نظراتها تتابع يدي . فتظاهرت بالامساك بورقة وقراءتها ... كانت وصفة الطبيب الذي عادني في غيبوبتي فيما يبدو ... وقرأت في اعلى الوصفة عبارة « الله هو الشافي »...

ولا ادري لماذا خيل اليّ انني اسمع صوت الغراب يحاول ان يقتحم النافذة الخشبية ...
قالت لي السيدة بانكليزية صافية :
ـ انا زوجة فضل ...
لم ارد .
قالت : اذن انت الصحفية السويسرية التي علق بها مؤخرا ؟
لم ارد .

قالت : كنت اتصورك شقراء زرقاء العينين ... فرجالنا يحبون احيانا امتلاك النساء الشقراوات ردا على امتلاك المستعمر لكثير من نسائنا ايام القهر ...

بدت الحيرة في وجهها امامي . اذن لا تعرف انني يمنية مثلها ؟ اذن لم يحدثها عني ؟

تابعت بصوت هادىء وجامد ما هو بصوت امرأة ولا رجل ، انما صوت كائن هجين :

ـ لا فرق ، شقراء كنت او سمراء . جئت انصحك بالعودة الى بلادك . جسدك الذي يعتاش على الجونبون والفيتامينات والبنسلين لا يستطيع احتمال امراضنا وجراثيم بلادنا ... ثم انني اعتقد ان علاقتكما طالت اكثر مما يجب .. وقد تسيء الى سمعة زوجي ومركزه في التنظيم . انصحك بالسفر فورا ... الانفلونزا لدينا مرض لا تحتمله اجسامكم ... جوعنا ، ومتاعبنا ، ومآسينا ومناخنا ، وحتى اوبئتنا ، لا تحتملها اجسامكم الهشة ...

كان في صوتها شيء رجولي وبارد . فتحت عيني ، وكانت صورتها الجميلة تقترب مني وتبتعد عني ، كان لها شكل امرأة جميلة جدا ... ومع ذلك كان هنالك شيء ما يشوه هذه الصورة .. شيء لا استطيع تحديده وسط أبخرة الحمى والدوار والمروحة التي بدأت تمزق دماغي ... وبدأت اصرخ : اوقفوا المروحة .

قالت بصوت بارد : المروحة لا تدور . انها واقفة ...
وكنت اراها تدور بسرعة شيطانية . واحسستني مربوطة الى احدى اذرعها ، وهي تدور بي تدور تدور تدور .....

تابع : كل شيء في حياتي وحياة فضل منظم . انا بالمناسبة زوجته الثانية . هنالك زوجته الاولى ومهمتها انجاب الاولاد . انا مهمتي « النضال الثوري » . انني اشارك زوجي كل اعماله ومهامه وحتى رحلاته حين يكون لديّ وقت . وليس من عادتي ان اتجسس على اخباره ولكن هذه اول مرة لا يحدثني فيها عن مغامراته ، ولذا جئت لاراك ... هذا كل ما في الامر ... بالمناسبة ، هل تحبين ان احجز لك على اول طائرة ؟

(أن ارحل ...
ان لا اراه بعد اليوم ؟..
وهذه الارض التي احببتها بكل فقرها ووجعها وانينها وشراستها، لا اراها بعد اليوم ؟
ان اعود الى جنيف ؟...
ان اتحرك في شوارعها التي تفوح منها رائحة النظافة المعقمة كما في المستشفيات ؟...
أن أعود الى ريكاردو ؟..

أن أبدل عقارب ساعتي من جديد ، فاترك ساعة التوقيت فضل ومواعيد نومه ويقظته وعمله ، وساعة التوقيت جنيف ؟

أن أجد نفسي غدا في جنيف ، حيث الثلوج تغطي كل شيء ؟..
ان اسير في الشوارع الى النهر ، ثم الجزيرة الصغيرة ، وسط النهر حيث البط الابيض الكسول يتثاءب وينظف ريشه ، والحارس العجوز يروي لي من جديد مغامراته زمن الحرب التي اعرف انه لم يخضها لكنه يحلم بها هربا من رتابة رفاهيته ..
أن يضمني ريكاردو بعد ان اثمل في احدى الحانات ؟

سافكر بفضل ... بعينيه في ذاكرتي وشما من جمر ... ساركض في شوارع جنيف مجنونة ... ساركض الى ساعة الزهور ، تلك الساعة الكبيرة التي رقعتها ارض من الحشائش ، وارقامها زهور ، وعقاربها تزحف فوق هذا المرج ... ساركض اليها ... وساحاول ان ابدل توقيتها الى توقيت فضل .. توقيت عدن .. توقيت مئات آلاف الكادحين .. توقيت الجياع ماضغي القات رغم الخنجر في يدهم ... توقيت الذين سرقت اوروبا منهم زمنهم وها هم يركضون كي يلحقوا بزمنها ...
اجل ...

ساركض الى ساعة الزهور ... سأقطف كل الزهور وابصق عليها ... لا يحق لاية ارض ان تزرع الزهور اذا كان القمح في اي مكان من هذا العالم غير متوفر ... وسأوقف عقارب الساعة ... ستمزق يدي مسنناتها الحادة ... وسيركض رجال الشرطة وستستنكر الصحف هذا الاعتداء الهمجي ... وعشاق العصافير الذين خرجوا يتظاهرون في شوارع جنيف يوم قررت لندن ابادة الحمام فيها ، سيتظاهرون ضدي ... ولن يخطر ببالهم قط ان يتظاهروا من اجل شعوب سرقت اموالها لتودع في مصارفهم ، ومن اجل شعوب تباد بالقنابل .. فيتنام .. جنيف حيادية .. لا .. الحياد غير ممكن في هذا العالم الوحش ... من ليس معي فهو ضدي .. لماذا لم يحدثني فضل عن زوجته ؟ لماذا لم يقل انها اذكى مني ؟ مثقفة وجميلة ... ماذا يريد مني ؟ لماذا قتلني بخنجره الهدية هكذا ؟ لماذا ازدواجيته هذه ؟ اهذي ... انني اهذي ولا استطيع ان اتوقف ..

المرضة تضع جبلا من الجليد فوق رأسي . الالم يمزق كل عضو من اعضائي .. اوقفوا هذه المروحة .. ارجوكم .. كفى .. كل ذراع فيها مقصلة .. الغراب جاء .. يضرب النافذة بجناحيه .. ياكل خشب النافذة بمنقاره ... يفتح دربه الي ...

فضل جاء ...
فضل جاء ...
تقول المرضة ذلك .
فضل . جفوني ثقيلة مثل ستائر مسرح يمتد علي طول الافق ... ولكنني اراه ...

ـ حبيبتي لم اكن اخدعك . اعرف ما يمكن أن تكون قد فاتته فاطمة . عرفت انها جاءت لزيارتك . لم اكن اخدعك . احبك ، وستبقين الى جانبي .. وسيعاد غرسك في ارضي ..
كيف ؟ وانا نبتة ، كما قالت زوجته ، لن تقوى على المناخ والتربة ؟

ـ حبيبتي ، لم اقل لك انني متزوج لانني لم الحظ ذلك !... المرأة الاولى في حياتي تزوجتها وانا في السادسة عشرة من عمري . المرأة الثانية اردت منها ان تكون شريكتي الفكرية لكنها ليست امرأة .. هل تفهمين ما اعني ؟ انها رفيقتي بل رفيقي في التنظيم ، لكنها ليست امرأة ...
أنا ثائر لكنني رجل ، عبثا قلت لها انها مشوهة كما زوجتي الاولى مشوهة ،
الاولى رحم متحرك ، والثانية بلا رحم ،
اني بحاجة الى امرأة واحدة تمنحني الشيء ، الذي تمنحونه لي انتن الثلاث ... اني احب ثلاث نساء في وقت واحد كي اصنع منكن امرأة واحدة ...
هل تفهمين ؟ لم اكن اخدعك ... ولم اخدع احدا .. المأساة اننا قبل الثورة لم نكن نكتفي بامرأة واحدة . كنا بحاجة الى ثلاث نساء .. وها نحن بعد الثورة بحاجة الى ثلاث نساء ... فالمرأة لم تتعلم بعد كيف تستعمل رأسها دون ان تتعطل انوثتها ..
هل تستطيعين يا حبيبتي ان تكوني ثلاث نساء ؟..
امرأة واحدة تكفيني ، على الا تكون معطلة الانوثة ولا معطلة الرأس .. هل تفهمين ؟ هل تفهمين ، هل تستطيعين ؟
وشعرت بأنني لا استطيع ان اكون اي شيء الا ما انا عليه ... كنت اصير شفافة .. وشعرت بأن اجنحة لامرئية تنبت لي .. وانني استعد لرحيل بعيد بعيد ... وغاب صوت فضل ولم اعد اسمع سوى صوت الغراب يضرب نافذتي بشدة ويحفر الخشب بمنقاره مثل الحفارات الآلية التي تخترق الصخر .. ولم اكن خائفة ولا فرحة .. كنت فقط انتظر ... وفي انتظاري كنت اشعر انني كمن سيطلق سراحه ...

افتح عيوني ... الظلمة تقطن الخص الخشبي ، واصوات الشارع ميتة تماما وحواسي كلها يقظة وصافية كما لم تكن ابدا .. بوضوح مذهل اعي كل شيء واري كل شيء ... ها هو فضل مرمي في الكرسي وفي وجهه دموع جافة ... اكثر من طبيب في الغرفة ... اكثر من ممرضة ... انابيب مغروسة في ذراعي ... اذن يحاولون ضخ الحياة الى عروقي .. ها .. كل شيء مضحك .. لا .. ليست الظلمة دامسة خلف النافذة ... اذن انقضت ليلة كاملة ..

لا اشعر بأي ألم ... احس بانني شفيت من امراضي كلها نهائيا اني .. اشف ... ارق ... اشعر انني كمن يطلق سراحه من كل قيد ... انه الفجر بدأ يضيء ، منقار الغراب ما يزال يحفر خشب النافذة بهدوء .. انني لا اسمعه ولا اراه لكنني اعرف انه هناك ...
ها الغراب قد استطاع ان يفتح فجوة في الخص الخشبي ... انه ليس غرابا كما كنت أظن .. انه شيء لم يخطر ببالي من قبل .. ها الفجر الرمادي يتدفق في الغرفة تدفق مياه البحر الى غواصة ثقب جدارها ....
ها انا اتسرب معه عبر النافذة ...

الساعة ٤ ليل ٢٣ ـ ١ ـ ١٩٧٣

بيروت ـ دمشق

غادة السمان